

الثقافة الصهيونية: ما هي؟

د. هانيب الراهب

إن الطبيعة الخاصة بهذا الفكر وتلك المحاولات يمكن أن تستشف من ثلاثة مصادر رئيسية . وغني عن القول إن المصادر الثلاثة هذه تعود إلى بيئة أوروبية صرف ، اتسمت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بسمات جوهرية لعل أهمها سيادة النزعة القومية ، وطغيان الطابع الاستعماري لهذه النزعة ، وانتشار الفكر الاشتراكي بأشكاله المتعددة ، وخاصة الفكر الماركسي الذي ولد من صميم تناقضات الحياة الأوروبية .

الأصول الطبقة

إن أهم ما يميز الفكر الصهيوني هو كونه نتاج الطبقة المتوسطة من يهود أوروبا . ويجمع الكتاب الاسرائيليون ، الذين أرخوا للحركة الصهيونية ، على هذه النقطة اجماعاً لا يترك مجالاً للتسكك فيها . فالهجرة الأولى التي بدأت عام ١٨٨٢ ، والثانية التي بدأت عام ١٩٠٦ ، والثالثة التي بدأت بعد اعلان وعد بلفور ، جاءت بأفواج من اليهود الساخطين على وضعهم الاجتماعي في روسيا ووسط أوروبا ، وهم بأغلبية ساحقة ينتمون إلى فئات الطبقة المتوسطة . كما أن هجرات صغيرة أخرى ، حوالي أعوام ١٩٢٥ ، ١٩٣٣ ، ١٩٣٧ - ١٩٣٩ ، لم تخرج عن القاعدة وان كانت أعدادها أقل بكثير من أعداد سابقتها .

هذه الهجرات هي التي رسمت المسار الفكري للصهيونية ، وقامت بالمحاولات التي استهدفت خلق ثقافة صهيونية . أما الهجرات التي تلت قيام الدولة الصهيونية ، فلم تستطع ، رغم عدد أعضائها الضخم ، أن تكون شيئاً سوى عنصر متخلف في البنية الأوروبية لهذه الدولة ، فهي في معظمها جاءت من بلدان الشرقي الأدنى والأوسط . وإن هذا التناقض النوعي بين هجرات ما قبل قيام الدولة وما بعد قيامها يفسر الانشطار الجوهري المتزايد حدة في البنية الاسرائيلية بين اشكنازيم وسفارديم .

قد لا تتيسر لنا فاتحة لهذه المقالة أفضل من سؤال هرتزل العصبي الانكاري : « وما هي الثقافة اليهودية ؟ » وان نستبدل كلمة (اليهودية) بكلمة (الصهيونية) ، يصير للانكار أساس أقوى بكثير من نفاذ الصبر عند هرتزل .

الثقافة واحدة من الكلمات الكبيرة . والكلمات الكبيرة غالباً ما تتأني على التعريف الدقيق . لكننا سنؤكد على اثنين فقط من معانيها المتعددة : الشمولي والضييق ؛ الأول ، باعتباره مجموعة الخصائص المميزة لأمة من الأمم ؛ والثاني باعتباره الجانب الفكري لحضارة أمة من الأمم .

في تقديري أننا لا نستطيع أن نتحدث عن ثقافة صهيونية بالمعنى الأول . فالصهيونية ، كحركة سياسية تاريخية ، لا تتجاوز المئة عام الا قليلاً . وخلال هذه الفترة لم تتمكن من انشاء خصائص مميزة على النحو الذي نلمسه في الثقافة الهندية أو الفرنسية أو العربية . وبالطبع ، فان هذا التوكيد يتضمن نفياً لأن تكون الصهيونية واليهودية مترادفتين في المعنى ، ونفياً أيضاً لأن تكون الصهيونية تعبيراً حديثاً عن اليهودية . انها شيء آخر تماماً ، رغم اتكائها الشديد اللاحق لتكوينها على معطيات يهودية كثيرة وأساسية .

لكننا نستطيع أن نتحدث الى حد ما عن ثقافة صهيونية بالمعنى الثاني . فرغم أن الصهيونية لم تنشأ حتى الآن ما يمكن أن يسمى حضارة ، ورغم انها كوّنت دولة وعجزت عن انشاء أمة ، ثمة صعيد فكري بارز المعالم يمكن أن نتبعه في ما اصطلح على تسميته بالحركة الصهيونية العالمية . والى جانب الجهاز الفكري الذي اصطنعته الصهيونية ، ينبغي أن نذكر محاولات الصهيونيين الذين هاجروا إلى فلسطين واستوطنوا فيها أن ينشئوا ثقافة خاصة بهم . وهي محاولات مرت بثلاثة أطوار ، وكانت على الدوام متوجهة بالمعطيات النظرية والعملية للفكر الصهيوني .

تؤكد المنبت البرجوازي الصغير للصهيونية دراسات قام بها كتاب يهود لا صهيونيين لطبيعة العلاقة بين اليهود والمجتمعات الأوروبية خلال قرون مضت . ففي العصر الاقطاعي ، كان اليهودي واحداً من مكونات الحياة الاقتصادية الاقطاعية ، كالقن ومالك الأرض . لقد كان هورأس المال الذي لم يستطع الاقطاع أن يكونه رغم حاجته له . ولأن رأس المال كان بطبيعة النظام الاقطاعي على هامش الحياة الاقتصادية ، ظل اليهودي على هامش الحياة الاجتماعية . لكنه ظل هناك ، ضرورياً ومطلوباً ، ومتعايشاً مع الفئات الاجتماعية الاساسية بطريقة أو بأخرى . لم يفكر ، رغم كل شيء ، بقومية يهودية ، ولا بدولة يهودية ، ولا « بالعودة » الى فلسطين . وقد ظهر أفراد قليلون ، مثل ساباتي زيبى ، دعوا للعودة إلى أرض كنعان ، فأحرقهم اليهود باعتبارهم مسيحيين زائفين .

غير أن هذا التأقلم لاقى ضربة مميتة على يد الرأسمالية ، التي ما ان تكبدت الحياة الاقتصادية الأوروبية حتى ألغت الدور الاقتصادي الخاص الذي كان اليهودي يقوم به في عصر الاقطاع ، مثلما ألغت أدواراً أخرى كان يقوم بها غير اليهود . وما ان انصف القرن التاسع عشر حتى كان اليهود ، مثلهم مثل سكان أوروبا ، قد انقسموا إلى طبقات ثلاث : الرأسماليون القدامى الذين دخلوا في تكوين البرجوازية الأوروبية كجزء لا يتجزأ منها ؛ والطبقة الدنيا التي تحولت إلى جزء من البروليتاريا الأوروبية مندمج فيها ؛ أما الطبقة المتوسطة فقد وقعت في أوروبا الشرقية والوسطى بين مطرقة الرأسمالية النامية وسندان بقايا الاقطاع ، ودفعت جزءاً من الثمن الفادح الذي تطلبه الصراع بين الرأسمالية والاقطاع ، وخاصة في روسيا بعد اصلاحات ١٨٦٣ . وهكذا بدأت موجات هجرة كثيفة ، من روسيا بصورة رئيسية ، ومن بولونيا وألمانيا ودول البلقان .

إلى أين توجهت هذه الهجرة ؟ يعطينا الكتاب الاسرائيليون أرقاماً ذات مغزى بهذا الصدد . ففي سبعينات القرن التاسع عشر هاجر ٦٠ ألف يهودي إلى الغرب الأوروبي والأميركي . وفي الثمانينات هاجر ٢٠٠ ألف . وفي التسعينات ٣٠٠ ألف . وبين ١٩٠٠ و ١٩١٤ هاجر مليون وخمسمئة ألف إلى أمريكا . بالمقابل ، لم يكن عدد الذين هاجروا إلى فلسطين خلال هذه الفترة يتجاوز الآلاف . وكان العامل النفسي الذي دفع هذه الآلاف القليلة إلى فلسطين أقوى من العامل الاقتصادي . فهؤلاء كانوا يريدون الاحتفاظ بأوروبيتهم ، ولكن بعيداً عن أوروبا وأمريكا . وكان شعورهم أنهم لا

يقولون قيمة ولا امكانات عن أوروبي الطبقة المتوسطة ، وأنهم قادرون على منافسة الأوروبيين والتخلص من اذلالهم بتكوين دولة وأمة . وقد حافظوا باستمرار على طبيعة الطبقة المتوسطة الفكرية ، من انقسامات عقائدية حادة ، وتذبذب جوهرى في التفكير ، وتشكيل أحزاب صغيرة لا عد لها ، وطوباوية مضحكة في تصور الانسان والحياة والمستقبل .

ولعل المثال أن يوضح المنشأ الطبقي المتوسط للصهيونية . ففي أوساط الحركة العمالية الثورية في روسيا ترعرع تنظيم للعمال اليهود ، هو البوند ، وواكب العمل السياسي للحزب الديمقراطي الاشتراكي الذي قاده لينين . كذلك تشكلت في عديد من أنحاء روسيا نوايا للصهيونية تدعو للقومية اليهودية واستعمار فلسطين . لكن الحركتين لم تلتقيا قط . فبينما اختار أعضاء البوند الحل الماركسي ، المتمثل في احياء الثقافة اليهودية وعصرنتها في الاطار الشيوعي ، والبقاء ضمن نظام سياسي تعددي اشتراكي ، أصر الصهيونيون على أرض ينشئون فيها دولة وينفصلون بها عن شعوب العالم . وهكذا تحولت جمعية أحباء صهيون ، التي تشكلت من النوادي الصهيونية ، إلى حزب سياسي هو الحزب الديمقراطي الاشتراكي العبري ، بويل زيون ، ذي التوجه الماركسي القومي ، بقيادة بن غوريون وبن زفي ، الذي صار فيما بعد حزب العمل الحاكم في اسرائيل .

مؤثرات

طبيعي أن يتعرض فكر الطبقة المتوسطة إلى مؤثرات عديدة ، ومتضاربة أساساً . فهذه الطبقة المخلخلة كبنية تستطيع امتصاص تيارات فكرية متنوعة ، على نحو يلعب فيه الخيال دوراً أكبر بكثير مما يلعبه ادراك الواقع الموضوعي .

ومن المؤكد أن الفكر القومي كان أهم ما تأثر به أحباء صهيون ، ومن بعدهم بويل زيون . أن القرن التاسع عشر هو عصر القومية في أوروبا ، وبتحديد أكبر ، هو عصر القومية الاستعمارية ، التي أرادت تنمية حسّ قومي متضخم لتحفظ بتفوق اقتصادي وبالسيطرة على أسواق تجارية ومصادر ثابتة للمواد الأولية . وقد يبدو من المفارقة أن يعتقد صهيونيون من الطبقة المتوسطة فكراً قومياً له هذه الصفة ، وهم جماعة لا تملك وسائل انتاج أساساً . غير أن الفكر الصهيوني ، الرجراج بطبيعته ، سرعان ما استدرك هذا الخلل ، وبدلاً من توجه مستحيل نحو السيطرة على الاسواق ومصادر المواد الأولية ، أوغل في توجهه الاستعماري نحو امتلاك الأرض نفسها التي كان رأسماليو أوروبا يكتفون باستعمارها . وكنتيجة لهذه

المعادلة صارت الأرض تشكل العمود الفقري في منظومة الفكر الصهيوني ، واخترعت لأجلها الاساطير وزوّرت الحقائق التاريخية ، كما سنرى بعد قليل .

هذا التوجه الاستعماري جاء نتيجة منطقية لتشرب الرؤية القومية في روسيا القيصرية وألمانيا وفرنسا وانكلترا . اننا هنا أمام ظاهرة تاريخية أكدت على الطابع الغيبي لشخصية الأمة ، على أن الأمة سر من أسرار الطبيعة ، تمتلك روحاً خاصة بها ، وتحمل تفوقها الضمني على بقية الأمم . وهكذا قام المفكرون الصهيونيون بتوكيد ماثل على عزة أمتهم ، وتفرداها بين الأمم ، على أن لها « روحاً قومية » تماماً كما للروس والبولونيين والامان وغيرهم . وأضافوا أن الشتات وضياح الأرض هما العاملان الحاسمان في ابطال مفعولها الخلاق ، وان وضع حدّ للشتات باستعادة الأرض هو وحده الكفيل باستعادة روح الأمة اليهودية وتفعيلها . وكان الطابع الرومنتيكي ، وخاصة في الرومنتيكية الالمانية ، قد جعل من فكرة الأمة كياناً عضوياً ، فوق بشري مفعماً بالغيبية والأصول العرقية الواصلة الى ما قبل التاريخ . وكان لنيته أكبر الأثر في صياغة الصهيونيين لفكرتهم عن الأمة .

على أن ثمة فرقاً جوهرياً في الممارسة بين قومية المفكرين الصهيونيين وقومية المفكرين الرأسماليين . فحيث كان المفكرون الرأسماليون يفكرون باسم طبقة تسيطر على مقدرات أمة ، وتستطيع أن تدعي أنها تتكلم باسمها ، كان المفكرون الصهيونيون يعيدون جداً عن هذا الموقع الاجتماعي الاقتصادي الحاسم . كان هؤلاء أقلية ضمن طبقتهم نفسها ، ولم يكن بوسعهم أن يتكلموا حتى باسم هذه الطبقة ، ناهيك بالطبقتين الآخرين ، البرجوازية والعاملة ، اللتين اندججتا بالبنية الاقتصادية لأمم أوروبا . وبدلاً من أن يدركوا عقم أية محاولة لاجتذاب اليهود الآخرين ، ازدادوا شططاً وتطرفاً في ابراز القومية اليهودية ، وجعلوا من أنفسهم رسلاً لها يحق لهم التكلم باسمها ومطالبة الآخرين بالانضواء تحت لوائها . ان هذه الممارسة ليست بعيدة عن فكر الطبقة المتوسطة ، فهي ، لكي تحتفظ بمصالحها ، تعتمد على التكلم باسم الأمة كلها ، عن مصير الأمة وقدرها ونضالها ، وضرورة الالتفاف حول قيادتها ، الخ . وهذا ما يعلنه منشور أصدرته جمعية احباء صهيون ، اذ جاء فيه : « نحن المتعلمين يجب أن نكون الأبطال الذين يدخلون المعركة على رأس شعبهم » .

من جانب آخر ، كان الفكر الأوروبي الاشتراكي مؤثراً لا يقل أهمية عن الفكر القومي ، على الأقل في المرحلة التكوينية

فالتأسيسية للحركة الصهيونية . وتلك هي واحدة من أبرز غرابات الفكر الصهيوني . وسنرى بعد قليل كيف اشترع بوروخوف توحيداً فكرياً بين النظرية القومية الأوروبية والاشتراكية . أما الآن فسنشير إلى الأدبيات والمنشورات التي كانت تصدرها النوادي الصهيونية في روسيا وأوروبا الوسطى ، والتي كانت متأثرة تأثراً طاعياً بالفكر الاشتراكي . يقول ديفيد هوروفتز ، الحاكم السابق لمصرف اسرائيل : « في (حركة الشباب الصهيوني العمالي) خلقنا لأنفسنا عالماً مثالياً ، جديداً وحرّاً ونيلاً . حلمنا بيوتوبيا - وكانت حركة العمل الصهيوني بوابتنا التي قادتنا اليه » . وواضح أن التركيز على « العمالي » و « العمل » في هذه البيوتوبيا ينم عن توجه اشتراكي في الفكر .

ويقول منشور صدر في لفوف عام ١٩٠٤ :

« أيها العمال اليهود في كل البلدان اتحدوا وراء راية بويل زيون . أيها الاخوة والأخوات من الطبقة العاملة ! اننا نرى أمامنا حركتين قويتين عظيمتين : الاشتراكية التي تنشئ تحريرنا من العبودية الاقتصادية والسياسية ، والصهيونية التي تنشئ تحريرنا من نير الشتات . كلتاهما تؤثران علينا تأثيراً عظيماً . كلتاهما تعداننا بمستقبل مجيد . كلتاهما حيويتان بالنسبة لنا كالحياة نفسها » .

ليس الطابع الاطنابي الاعلاني عصياً على الالتقاط في هذا المنشور . وليست عصبية أيضاً محاولة الصهيونيين انتماس الدعم من الطبقة العاملة اليهودية ، التي انصرفت عنهم ، كما رأينا . وقد وصل بهم الأمر إلى حد صياغة شعارات سائرة كنوع من غسيل الدماغ . ففي منشور آخر نقرأ ما يلي :

« أيها العمال والعاملات اليهود ، أيها المستغلون ، المضطهدون ، الذين يعيشون بعرق حاجبهم . . لتتوحد ونعلن : يسقط الاندماج ! تسقط الرأسمالية ! تسقط اللاسامية ! لتعش البروليتاريا الدولية ! لتعش الحرية اليهودية ! لتعش الاشتراكية ! لتعش الصهيونية ! » .

وبالطبع تجدر الإشارة هنا إلى الأثر الخاص والعميق الذي تركته الحياة الوطنية الروسية على الحركة الصهيونية . فالمنافخ الثوري الجائش في روسيا بين ١٨٨٠ و ١٩٢٠ كان المهدي الذي ولدت فيه الصهيونية وترعرعت ، دون أن يكون بالطبع مسؤولاً عنها أو متبنياً لها . فمن روسيا جاء مؤسسوا اسرائيل . وفي (منسك) ولدت حركة العمل الصهيوني عام ١٩٠٢ . وعموماً ، فان الصهيونية ، كما يقول كتاب اسرائيل ، كانت نتاجاً أوروبياً صرفاً ، مثله مثل الشعبية في روسيا والعرقية في ألمانيا .

سيحررهم والبشرية معهم . وسيكون هذا ممكناً عبر عودة اليهود إلى العمل « المنتج » في الأرض ، ضمن إطار من النظام العادل الخالي من الهرمية الاجتماعية ، والمكون من وحدات تعاونية .

كذلك تحول إلى الصهيونية فجأة ليو بنسكر الروسي ، وسرعان ما رأى في اللاسامية داء عضالاً ليس له دواء . وفي كتابه (الاعتناق الذاتي) ، ١٨٨٢ ، دعا بحماسة شديدة إلى أن يمتلك اليهود أرضاً خاصة بهم . لم يكن بالنسبة له أين تكون الأرض ، وإنما أية أرض يمكنها أن تنقذ اليهود من الانقراض في أوروبا .

على أن أهم مفكر منح للحركة الصهيونية ما تحتاج إليه من صيغ عقائدية ضرورية هو بير بوروخوف ، الذي فصله الحزب الديمقراطي الاشتراكي الروسي من عضويته بسبب انحرافات الصهيونية . لقد أنشأ بوروخوف نظرية تدمج الماركسية الأساسية والصهيونية ، الثورة الاشتراكية والقومية اليهودية . وهذه النظرية هي التي مكنت الصهيونيين من الاعتقاد بأن استثمارهم لفلسطين سيكون تطبيقاً للاشتراكية الماركسية .

لقد رأى بوروخوف أن البؤس اليهودي نتيجة « لسيرة انتاج » مناوئة لليهود . وهذه فكرة صحيحة ، سوى أنها لم تحدد أن اليهود الذين « نأوتهم الثورة الصناعية الأوروبية هم فئات من الطبقة المتوسطة فقط ، وليس اليهود قاطبة . وفي كتابه الصغير (المسألة القومية والصراع الطبقي) ، يشير إلى أن اليهود ، لكونهم لا أرض لهم ، قد أخرجوا بالضرورة من ميادين الاقتصاد الأولية ، كالزراعة والتعدين ، ودفعوا إلى الميادين الهامشية ، كالتجارة والصناعة الخفيفة . وهذا صحيح أيضاً ، سوى أنه ينطبق على الطبقات المتوسطة الأوروبية كلها ، وليس فقط على اليهود . وتأتي النقلة الحاسمة في فكر بوروخوف عندما يسقط الطبقة الوسطى نهائياً من حسابه ، ويستبدلها بالبروليتاريا اليهودية ، بأسلوب من الخداع الفكري الذاتي ، فيقول : ان كون البروليتاريا اليهودية غير منتجة جعلها عاجزة عن التجمع كقوة اجتماعية ، فقد ضاعت منها القاعدة الاستراتيجية للصراع الطبقي . وواضح أن كلمة (بروليتاريا) مقحمة اقحاماً في هذه العبارة ، وأن القاعدة الاستراتيجية للصراع الطبقي ليست أرضاً قومية بحسب الماركسية ، وإنما هي الميدان الدولي بأكمله . وتابع بوروخوف تحليله فأكد على ضرورة الاشتراكية العلمية ، التي ستجعل اليهود بشراً منتجين ، ولكن فقط على أرض خاصة بهم .

لم يكن بوروخوف يؤمن بالتراث اليهودي . وكان ينظر إلى

في تاريخ الفكر الصهيوني ، ثمة أسماء صنعتها أو بلورته إلى حد كبير ، وأعطته زخماً واستمرارية ، وزودت الحركة الصهيونية بالقناع الايديولوجي اللازم لخوض معركتها الاستعمارية . ومن الملاحظ أن معظم هؤلاء ، ان لم يكن كلهم ، انقلبوا إلى الصهيونية انقلاباً مفاجئاً ، بعد أن كانوا أفراداً مندجين في مجتمعاتهم الأوروبية . ويتضح من تكرار هذه الظاهرة أن اعتناق الصهيونية من قبلهم كان فعلاً نفسياً ، لا موقفاً فكرياً تاريخياً ، انهم لو صبروا قليلاً لسارت الأمور على ما يرام في المناخ الليبرالي المتزايد قوة واتساعاً في أوروبا وأمريكا ، ان عقيدتهم الجديدة كانت وليدة عوامل شخصية ، وليست سياقاً تاريخياً تفترضه وتنشئه قوانين التاريخ . ولعل أبرز مثال على هؤلاء تيودور هرتزل نفسه ، مؤسس الحركة الصهيونية العالمية . فهذا الصحفي النمساوي المتألق ، الذي كان يكتب المسرحيات كمواطن نمساوي يزدرى اليهودية والتشبث بها ، سرعان ما أصدر كتابه الشهير (الدولة اليهودية) بعد عام من مشاهدته لأحداث قضية دريفوس ، وأسس حركة قومية يهودية ، بعد عام آخر . ولأنه كان الوحيد المتشعب بليبرالية أوروبا الغربية ، كان أبعد الصهيونيين عن فكرة أرض الميعاد والتراث اليهودي . كان يريد مكاناً ، أي مكان ، يقطنه اليهود بعيداً عن اذلال الأوروبيين لهم . إن دوره الفكري ، بعكس دوره السياسي ، ضئيل للغاية ، وقد انحسر نهائياً بعد زمن قصير من وفاته .

أما ليب ليلينبلوم فكان المفكر الذي ألهم المهاجرين من روسيا عام ١٨٨٢ أن يستوطنوا فلسطين . وكان قبل سنوات قد أدار ظهره لليهودية . لكن أحداث ذلك العام غيرت رأيه فجأة وجعلته ينشئ تفكيراً قومياً ذا توجه عملي ، هو الهجرة إلى فلسطين والاستيطان فيها .

وكان موزس هس أيضاً يهودياً مندجماً وألمانياً اشتراكياً من الطبقة المتوسطة . بل ويقال إنه كان يتعاون مع ماركس وانغلز . ورغم أن كتابه (روما وأورشليم) صدر عام ١٨٦٢ ، فلم يلق اهتماماً الا بعد ربع قرن أو يزيد . وقد أضاف هذا الكتاب إلى الفكر الصهيوني مسحة رومنيتيكية في دعوته الطوباوية إلى تأسيس دولة يهودية على أساس « خلق عملي » من الحب والطوعية والتعاون المنسجم بين الناس الأحرار . وقد رأى في التاريخ صراعاً بين القوى الغربية للحب والعدل والقوى الانانية الاضطهادية . ورأى أن على اليهود في دولتهم القومية أن يهيئوا « لسبت التاريخ » الاشتراكي ، الذي

التاريخ نظرة جدلية ، فيرى أن القوى الاجتماعية التي جعلت الحياة مستحيلة بالنسبة لليهود في الشتات هي نفسها القوى الختمية التي ستخلق منهم بروليتاريا منتجة ، ولكن على أرض فلسطين . وقد اختار فلسطين ليس لأنها أرض الأبناء والأجداد ، بل لأنها أرض فقيرة ، لن تهتم بها الرأسمالية الدولية ، ولن تحاول طرد اليهود منها . وقد رأى أن العرب سيرحبون جداً بمجيء اليهود إليها . فالعرب المحرومون في رأيه من شخصية ثقافية واقتصادية خاصة بهم لن يستطيعوا أن يكونوا أمة - بعكس اليهود تماماً . ولأنهم ليسوا أمة ، لن يكونوا قادرين على معارضة منظمة لمؤثرات خارجية . كان نوعاً من الختمية التاريخية في تصوره أن العرب عاجزون عن تنمية قومية خاصة بهم . وما دامت فلسطين في مأمن من خطط الرأسمالية الدولية الشريرة ، فسيندمج العرب في اليهود ويصيرون قومية واحدة .

لقد تلقف الصهيونيون أفكار بوروخوف المتمركسة ، واعتبروها انجلاً صهيونياً . فلأول مرة يأتيهم مثل هذا التصور الذي يربحهم من الأشكال الجوهرية بين إيمانهم بالاشتراكية وضرورة استعمار فلسطين ، ويربحهم من المسؤولية الأخلاقية المترتبة عليهم تجاه العرب . وكان بوروخوف قد رسم خمسة شروط أساسية لنجاح الاستعمار لا تنطبق الا على فلسطين ، هي :

- ١ - يجب ألا يكون في الأرض اقتصاد رأسمالي متطور .
- ٢ - يجب ألا تكون حكومتها في أيدي واحدة من القوى الرئيسية الامبريالية .
- ٣ - يجب أن تكون فيها بدايات جماعة يهودية راغبة في سيورة التحول الى بروليتاريا .
- ٤ - يجب ألا تكون قريبة جداً من المراكز الرئيسية للرأسمالية العليا .
- ٥ - لا بد للسكان الاصليين من أن يتشابهوا مع اليهود نفسياً وعرقياً بحيث يصيرون ، « تحت ادارة فعالة » ، متكيفين مع القادمين الجدد و « ثقافتهم الروحية الأسمى » .

وفي مكان آخر ، كتب بوروخوف أن « العوام فقط يعتبرون السكان عرباً أو أتراكاً . . . وليس لديهم سبب يجعلهم يلاقون بالعداء فوراً . على العكس ، هم يعتقدون أن الأرض حق لليهود ، وهم أنفسهم يسمونها « أرض اليهود » .

انا في هذه الأيام نقرأ كثيراً من الكتابات الاسرائيلية التي تؤرخ للحركة الصهيونية ، والتي تزعم أن القادة الصهيونيين أنفسهم لم يكونوا واعين بمشكلة اسمها العرب . ان نظريات

بوروخوف هذه ، التي مارست تأثيراً طاعياً على الحركة الصهيونية حتى عام ١٩٠٦ ، والتي أساساً للنشاط الصهيوني حتى عام ١٩٢٠ ، تنفي نفياً قاطعاً أي جهل أو غياب وعي بالمشكلة العربية .

أسطورتان

هذه المصادر والمؤثرات الفكرية في الحركة الصهيونية سرعان ما تبلورت في أسطورتين قويتين تشكلان الاساس العقائدي للحركة الصهيونية . ونحن نعلم أن كل حركة سياسية تنشئ أساطيرها الخاصة بها لكي تستمد منها مبرر بقائها ووجودها ، ولتبقى معنويات أفرادها عالية وزخها الخاص مستمراً . ويمكن أن نصنف هذه الأساطير في مجموعتين ، ترتبط الأولى بالأصول ، والثانية بالرسالة .

لقد اعتمد الفكر الصهيوني أسطورة الأصول بسهولة . وانطلاقاً من الفكر القومي الأوروبي ، الذي جعل كل أمة أوروبية كيانياً عضواً مغرقاً في القدم ، صار عمر الأمة اليهودية في نظر المفكرين الصهيونيين يقارب أربعة آلاف عام . فابراهيم الذي هو منشاء الأمة اليهودية ، وجد بحسب مقولاتهم في القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد . ولم يكونوا في توكيدهم للهوية القومية بحاجة الا لتحويل التوراة من كتاب ديني إلى كتاب تاريخي ، رغم ما فيه من تزوير وانتحال ومبالغات وكذب ، والايان بأن ما سجل فيه حقائق تاريخية موثقة لا يأتيها الباطل . وتحولت المشكلة اليهودية ، التي هي نتاج رأسمالية القرن التاسع عشر ، الى مشكلة أزلية ، كونية ، وستظل أبدية ، تعم اليهود كلهم ، وسببها الأولي الوحيد هو الشتات .

لهذه الأسطورة تفرعات وامتدادات كثيرة لا مجال للتطرق إليها هنا . غير أن ثلاث نقاط هامة ترتبط بها لا بد من ذكرها . أولها اضطراب المفكرين الصهيونيين إلى تبني نظرية مستحيلة في الصفاء العرقي لليهود ، سرعان ما آمنوا إيماناً دينياً ، مغلقاً دون العقل والمحااجة . وبذلك اقترب الفكر الصهيوني من عرقية فاشية سبقت تاريخياً ظهور النازية ، وتفوقت عليها في جيل الصابرا الذي جاء بعد جيل الرواد .

والنقطة الثانية هي العداء المحكم لكل ما هو ديني في تاريخ اليهود ، سواء في التوراة أو التلمود أو الكتابات اليهودية الأخرى . والحقيقة أن العداء الشديد كان متبادلاً بين الصهيونيين والتراثيين الدينيين . فالخامون ، الذين حافظوا على التراث اليهودي ، اعتبروا الصهيونية نهاية لليهودية ،

وقاوموها بكل ما يملكون من امكانات . أما الصهيونيون فاعتبروا الانبياء والحكماء في بني اسرائيل حفاري قبور لليهودية « الحقيقية » ، وراحوا يمجدون الملوك الذين « عملوا شراً في عين الرب » . ونظروا الى الرب نفسه كإله للبراكين ، يمشي أمام الجنود في الحرب ويقاومهم . ورأوا في يهودي الشتات ما يستدعي اشمئزازهم واحتقارهم لأنفسهم ، وأصروا على اعتبار أنفسهم « عبريين » ، مسترجعين ذكرى القوة الغازية لأرض كنعان التي أسست مملكة بحد السيف ، ووضعت ، في تصورهم ، البذور الأولى للقومية اليهودية . وواضح أن هذا الموقف متأثر بفكر نيتشه أساساً ، وفاغتر إلى حد ما

النقطة الثالثة جديرة باهتمام خاص من المثقفين العرب . وهي أن الصهيونية قديمة قدم اليهودية . ان بعضنا يؤمن بها الى حد ، ويرى فيها تعبيراً تاريخياً عن الشر المتأصل في اليهود . ومثل هذا الموقف ليس بعيداً عن اللاسامية ، كما أنه يغفل حقائق التاريخ التي تثبت أن الصهيونية كفكر وحركة امتداد للفكر الأوروبي الاستعماري . والفكر الصهيوني يرى أنه منذ سقوط اورشليم عام ٧٠ (وكانت في الحقيقة محتلة من قبل الرومان منذ عهد بعيد) ، بدأت الصهيونية ، واستمرت على شكل ايمان لا يتزعزع بالعودة الى كنعان وبناء المعبد من جديد . وليس اختتام الصلاة في عيد الفصح اليهودي بعبارة (العام القادم في اورشليم) الا تعبيراً عن صهيونية تاريخية لم تستطع القوى اللاسامية أن تمحوها . ان العنصر الأسطوري والتلفيقي واضح هنا . وان الففز فوق حقائق التاريخ لا يضل أحداً الا الذين يقومون به . فقد انتشر اليهود في أرجاء الامبراطورية الرومانية ، وبعد وقت قصير وجدوا وضعهم الاقتصادي فيها مريحاً أكثر بكثير مما كان عليه في فلسطين . لذلك آثروا الشتات على العودة . والحقيقة أنه لم يكن ثمة شيء يعيق عودتهم لو أرادوها ، فهم لم يكونوا واحداً من الهموم الكبيرة للامبراطورية الرومانية ، ولا ذاكرة قوية في تاريخها . لكن وضعهم الاقتصادي الممتاز جعلهم يؤثرون أوطاناً جديدة ويستقرون فيها . وقد ذكرنا الشيء نفسه عن وضعهم الاقتصادي المماثل في عصر الاقطاع الأوروبي . ويهمننا أن نذكر وضعاً ثالثاً فاق كل توقعاتهم في ظل الامبراطورية العربية ، وخاصة في الاندلس حيث كانت لهم حرية ثقافية واجتماعية كاملة جعلت فكرة العودة هذه ضرباً من الجنون .

لكن الصهيونيين رفضوا هذه الوقائع كلها ، واعتمدوا عبارة (العام القادم في اورشليم) ، المرتبطة أساساً بتصور ديني عن القيامة ونهاية العالم ، كدليل على توك قومي أصيل . كانوا

محتاجين إلى أسطورة أصول فصنعوها . ولم يحاولوا قط أن يجيبوا عن الأسئلة التالية التي وضعها اليهودي الماركسي ابرام ليون : لماذا ، خلال ألفي عام بعد سقوط اورشليم ، لم يحاول اليهود العودة إلى تلك البلاد ، ما دامت الصهيونية قديمة كاليهودية ؟ لماذا كان ضرورياً الانتظار حتى نهاية القرن التاسع عشر كي يظهر هرتزل ويقنعهم بضرورة العودة ؟ لماذا ليس قبل ذلك أو بعده ؟ لماذا عومل أمثال هرتزل من قبل كمسيحين زائفين وحرقوا ؟

أما الأسطورة الثانية ، أسطورة الرسالة ، فقد تقدمت من اليهود بصورة طوباوية ليهودي المستقبل . انه اليهودي اللايهودي ، الذي سيعود إلى فطرة الانسان متخلصاً من تشويه الشتات ؛ اليهودي القوي ، المحارب ، الذي يعيش في مجتمع الحرية والعدل والكرامة والأمن ، ويتمتع بصحة نفسية أفضل حتى مما لدى الأميين ، ويجرد أعداءه اللاساميين من أي مسوغ لكراهيته واحتقاره .

لقد استهدفت أسطورة الرسالة أساساً اعلان الحرب على عدوين اعتبرتهما نوعين من المطلق : الشتات واللاسامية . لقد كان الحس اليهودي بالشتات شبه مفقود حتى أواسط القرن التاسع عشر . وفي هذا القرن بالذات أيضاً اتخذ التنافر الديني بين مسيحي ويهودي هوية سياسية ، بسبب انقلاب البنية الاقتصادية الأوروبية . لكن الفكر الصهيوني اعتبر الشتات ظاهرة سياسية بدأت منذ عهد الرومان ، واللاسامية موقفاً أزلياً من الأميين إزاء اليهود ، وأعلنت أن لديها الحل الأبدي لمشكلة أبدية .

وهكذا تقدمت أسطورة الرسالة من اليهود بدين جديد هو مزيج من عبادة الأرض وعبادة العمل . فأرض اسرائيل هي البيئة الوحيدة في العالم التي يمكن لليهودي فيها أن يكتسب صحة نفسية وانسانية ، خسرها مذ خسر الأرض . كذلك فان هذه الأرض نفسها فقدت صحتها ونتاجيتها مذ تركها اليهودي ، وتحولت إلى صحاري ومستنقعات على أيدي أناس لم يخلقوا لها ولم تخلق لهم . ان صورة الصهيوني الذي يجفف المستنقعات ويخصب الصحاري واحدة من أبرز الصور الثقافية في أذهان المهتمين بها في الغرب . وكان الاصرار على العمل اليدوي في الأرض يقارب حد الهوس عند المهاجرين الأوائل . فالعمل اليدوي هو الذي سيعيد الصحة لكلا الأرض وأصحابها التاريخيين . وهو الذي سيحقق العدل ، إذ يحول دون استغلال العرب استغلالاً رأسمالياً . وهو الذي سيثبت حقهم التاريخي في الأرض بتحويله إلى حق عملي . وكما أشرنا

سابقاً ، كان الصهيونيون في حاجة إلى قوة تكفي للسيطرة على الأرض ، لم يكونوا يملكونها لا في ميدان الصناعة ولا رأس المال ولا التجارة ، على نحو ما توفر للاستعماريين الأوروبيين . وكان لا بد لهذه الحاجة العملية من غطاء عقائدي ، فاخترعوا الغطاء وصنعوا منه أسطورة .

ثلاثة أطوار

مر هذا الفكر الصهيوني والمحاولات المبذولة لخلق ثقافة صهيونية بثلاثة أطوار . ونحن نستمد التواريخ من وقائع الهجرات الصهيونية إلى فلسطين . فبين ١٨٨٢ و ١٩٠٦ كان الطابع الغالب للهجرة الصهيونية استعمارياً بالمعنى التاريخي المتداول . ان أثرياء اليهود من أمثال روتشيلد ، رأوا من الحكمة مطامنة غليان فئات الطبقة المتوسطة من اليهود بارسالهم خارج أوروبا . لذلك دفعوا بسخاء لأجل اقامة مستعمرات صهيونية في فلسطين يهاجر إليها نافذو الصبر من أفراد هذه الطبقة ، فيتوقفون عن مهاجمة الرأسمالية ، وخاصة اليهودية منها . إن مستعمرة ريشون لوزيون أشهر من أن تُعرف . وفي جميع هذه المستعمرات ، كان الصهيونيون يمارسون نشاطاتهم الفكرية كأسياد أوروبيين ، بينما يقوم بالعمل المؤجرون العرب .

هذا الوضع أثار سخطاً شديداً لدى أفراد الهجرة الثانية ، الذين جاءوا بعد فشل الثورة الروسية عام ١٩٠٥ . لقد رأوه وضعاً لا صهيونياً ، رأسمالياً وبرجوازيماً عنفاً ، عاجزاً عن خلق ثقافة صهيونية . ومنذ هذا التاريخ حتى انفجار الثورة الشعبية الفلاحية في فلسطين ضد الانكليز والصهيونيين عام ١٩٣٦ ، تنتقل الحركة الصهيونية إلى الطور الثاني ، الذي هو بحق محاولتها الجديدة العملية لخلق ثقافة صهيونية ، ووضع نظرياتها موضع التطبيق . وسرعان ما بدأت حركة نشطة لاقامة تعاونيات زراعية شيوعية ، يعمل سكانها بأيديهم ، ويتتجون حاجاتهم كلها دون أن يملكو شيئاً كأفراد ، وخاصة المال . لقد أرادوا أن يخلقوا اليهودي الجديد ، يحرره من لا انتاجيته وعبوديته للأعميين ، وان « المجتمع الخير العادل والكامل أخلاقياً » . وقد اختاروا عزلة مطلقة عن العالم الخارجي كي ينصرفوا انصرافاً كلياً إلى تكوين شخصيتهم الجديدة .

وكان أبرز انجاز ثقافي حققوه هو احياء اللغة العبرية وجعلها لغة محكية ، وتطويرها ما أمكن لمتطلبات العصر . وكان بن يهودا ، الذي حل في فلسطين عام ١٨٨٢ أول من بدأ هذا الاحياء برفضه التكلم مع زوجته وأمه ووليدته الا بالعبرية . وقد تابع صهيونيو الهجرة الثانية محاولته بدأب كامل ، الى أن تمكنوا

من خلق جمهرة لا بأس بها من المتكلمين بالعبرية ، وأوصلوا العبرية الى أن تكون لغة الدولة الرسمية عام ١٩٤٨ ، وتقف جنباً إلى جنب مع الانكليزية والروسية .

كذلك حققت محاولة الاستقلال الاقتصادي ضمن التعاونيات الزراعية نمطاً جديداً للحياة ، وخلقت علاقات جديدة بين سكان هذه التعاونيات . ومن البديهي أن يكون الهم الوحيد لديهم تكوين نوع من الاحترام الذاتي ، والشعور بالجدارة ، نابعين من تحول هؤلاء السكان إلى عمال منتجين لا يعتمدون على أحد في كسب عيشهم وتأمين استمرارهم . أما مسألة علاقتهم بالقوى الكبرى وسكان الأرض الاصليين فقد أبعدت عن أذهانهم . وتعاموا بتتبع أهدافهم عن النظر بجديّة إلى تناقضات صميمية في مشروع وجودهم وفي علاقتهم بالعالم ، رغم أن هذه التناقضات كانت ماثلة أمامهم وتذكرهم بنفسها يوماً عبر السلطات التركية التي كانت تعتقل بعضهم ، وعبر الاغارات العربية المخففة على مستوطناتهم . فالى جانب المعول ، كانت البندقية الجيدة جاهزة باستمرار لاطلاق النار .

إننا في هذه الفترة نلتقي بكلمات عديدة دخلت في كثير من لغات العالم . ثمة بالتحديد الكيبوتز ، والحالوتزيم ، والصابرا . ولعلنا بشيء من التعميم نستطيع القول بأن هذه الكلمات الثلاث تشير إلى كل ما استطاعت الحركة الصهيونية أن تنجزه على الصعيد الثقافي . فالكيبوتز بيئة مختلفة . انه أول تجربة زراعية شيوعية ، وأول محاولة لازالة حس الملكية واحلال المشاعية والعلاقات الحرة محل قوانين المجتمع البرجوازي . ولأن سكان الكيبوتز لم يكونوا يرون سوى أنفسهم ، فقد انصرفوا إلى خلق حياتهم الجديدة بتكريس كامل . هؤلاء السكان هم الحالوتزيم ، أو الرواد ، أبناء الطبقة المتوسطة في أوروبا ، الذين صمموا على خلع أنفسهم من ثقافتهم الأوروبية واليهودية وتطبيق الماركسية على صعيد زراعي . كانوا يستيقظون مع شروق الشمس ، ويقضون سحابة نهارهم في العمل على الأرض . وفي المساء يجتمعون في ندوة بنوها بأنفسهم ليتناقشوا في الماركسية ، والرأسمالية ، والدولة اليهودية ، والعرب الذين سيندمجون فيهم ، ومختلف الموضوعات الدولية الأخرى . وفي ساعة مبكرة يخلدون الى النوم في مهاجع جماعية بنوها أيضاً بأنفسهم ، فمن شاء نام للتو ، ومن شاء مارس الجنس دونما رقابة . وكانت المستوطنة حصناً زراعياً ، قادراً على الدفاع عن نفسه ، له حرسه الليلي ، ومستودع أسلحته وذخيرته . حتى اذا ما هاجم العرب بيواريدهم الصدئة كانوا خاسرين على الدوام .

هؤلاء حاولوا أيضاً خلق جيل نقي تماماً من أية مؤثرات برجوازية مهما كانت ، جيل ينهض وحده كالصبار في الأرض الصحراوية . هذا الجيل هو ما يسمى بالصابرا ، جيل الابناء الذين ولدوا في فلسطين ، التعبير العملي الحي عن اليهودي الجديد المعاني ، اللايهودي ، المستقر في وطن العدل والخير والسلام والحرية ، الذي يرقص (الهورا) ، ويتمتع بخصائص تميزه عن يهودي الشتات وبقية شعوب العالم .

يجب ألا نتخذنا أهمية الكيبوتز وسكانه . فعلى الصعيد الانساني ، كان النتائج معاكساً تماماً للصورة الدعائية التي مهر الاسرائيليون في تقديمها للعالم . إن الجيل اليهودي الجديد ، أو الصابرا ، أكثر مرضاً من أنداده في بلدان أوروبا ، وبالتأكيد أبعد ما يكون عن أية انسانية منشودة . فهذه الطرزانات العبرية ، كما يسميهم آرثر كوستلر ، بدائية الى حد الهمجية ، فاقدة لأيما قدرة على الحب والتعاطف والتواصل الانساني ، مؤمنة بالقوة والعنف ، كارهة لبني البشر قاطبة . والذي يقرأ عن الصابرا في روايات يائيل دايان وغيرها من كتاب اسرايل يجد نفسه أمام حالات نفسية مَرَضِيَّة ، أين منها التبشيرات الأسطورية بالانسان الجديد التي أطلقتها الفكر الصهيوني .

لقد كان جيل الصابرا هو المحك والميعار لنجاح الصهيونية انسانياً . ومما لا جدال فيه أن الفشل قد توج محاولة الصهيونيين لخلق أعماط جديدة لحياة مختلفة تؤسس لثقافة صحية ومعافاة . كذلك فشلت محاولة جعل التعاونيات الزراعية طابعاً قومياً لاسرائيل . فسكان الكيبوتزات لم يتجاوزوا في أفضل الحالات ثمانية بالمئة من البنية الاقتصادية والسكانية لاسرائيل . وفي معظم الحالات ، كانت نسبتهم لا تتجاوز أربعة بالمئة . بمعنى آخر ، ان كثيراً من الدعاية قد دخل في تصورنا لهم ، وان الحقيقة المتعلقة بما نسميه تجاوزاً ثقافة صهيونية ، كانت في مكان آخر ، في الاعداد الغفيرة قياساً من ساكني المدن الذين حافظوا على الطابع الاستعماري التقليدي المهاجري الموجه الأولى ، والذين شكلوا العمود الفقري لجيش محارب بدأ بن غوريون وبن زفي ينشأه منذ عام ١٩٠٩ . ان التفكير بانشاء هذا الجيش ، يعني ادراك القادة الصهيونيين أن محاولات خلق ثقافة جديدة ويهودي جديد لم تكن غير تبرير عقائدي واسطورة ضرورية لمعركة استعمارية صرف . وينبغي التوكيد على هذه النقطة ما أمكن . لأن الفكر الصهيوني ما فتىء يؤكد على براءة المهاجرين ، وطوباويتهم ، وانصرافهم إلى الاحلام انصرفاً انساهم الواقع ، لكي يخفف من استنكار المفكرين العادلين للحركة الصهيونية . وان خير دليل على ما نقول هو المآل الذي وصلت اليه محاولات خلق هذه الثقافة وهذا اليهودي الجديد .

صحيح أن الرواد أعطوا صورة ثقافية مختلفة لاسرائيل ، لكنها ظلت صورة دعائية ، وكان الواقع شيئاً آخر . فمنذ ١٩٣٦ راحت اسطورة الرسالة تتلاشى ، وراح بروز الطبيعة الاستعمارية للحركة الصهيونية يطيح بالاحلام المزعومة ويضع حداً لكل ما هو ليس مقاتلاً أو عنصرياً أو أداة بيد الامبريالية العالمية . واذا كانت أسطورة الأصول قد بقيت كحاجز نفسي ضد الانهيار النهائي ، فان وقوع الكيان الصهيوني في القبضة الاقتصادية الامبريالية - بعكس ما أراده بوروخوف - قد ألغى كل امكان لقيام ثقافة صهيونية متميزة . ان سقوط أسطورة الرسالة ، وخاصة ايجاد حل للمسألة اليهودية ، قد أوصل الاسرائيليين إلى وضع معاكس تماماً . فبينما حلت المسألة اليهودية في جميع أنحاء العالم ، بقيت في اسرايل . وبقي هذا المجتمع الاسبارطي نموذجاً جديداً للغيتو اليهودي الأوروبي السابق ، مع فرق واحد هو أنه متختم بالسلاح . لقد ابتعدت البنية الاسرائيلية باطراد وبشكل حاسم عن كل ما هو شيوعي واشتراكي ويساري ، وتقلصت فكراً وثقافياً إلى معطيات برجوازية صرف ، وادعاءات تاريخية عجزت عن خلق تيار ثقافي حتى بين الأدباء الاسرائيليين أنفسهم . إن أبرز أدباء اسرايل اليوم هم الذين يكتبون بضغظ شعور طاغ بخطأ تاريخي فادح ، بما يشبه جريمة سيق إلى اقترافها من يسمون الآن اسرايليين ، بوعي ممزق بأن الدولة الاسرائيلية صنعة اسرائيلية محض لا تستطيع أن تتنفس الا بمضخة أمريكية . وقد بلغ هذا التحول ذروته باستلام أقصى اليمين الاسرائيلي للسلطة ، ممثلاً بمناحيم بيغن .

إن مناحيم بيغن رمز سياسي ، ورمز ثقافي أيضاً . فهو ، وسلفه جابرتنسكي ، والحركات الارهابية التي أسسها ، كانوا الصوت الصادق الوحيد في الحركة الصهيونية . هؤلاء لم يتستروا بالايديولوجيا ولا بالأساطير على غزوهم لفلسطين . لقد أعلنوا منذ البداية انهم سيأخذونها بالقوة . ولم يكونوا في هذا بعيدين عن بن غوريون وحزبه الاشتراكي . فبن غوريون ، يوم أسس الجيش الصهيوني ، جعل شعاره العبارة التالية : « بالنار والدم سقطت يهوذا ، بالنار والدم ستنهض يهوذا ثانية » . غير أن بن غوريون كان أذكى ، فعرف كيف يزود الحركة الصهيونية بالغطاء الفكري المناسب .